البعد الأخلاقي وفلسفة المجاهدة الصوفية

د. آمال محمد عامر

قسم الفلسفة– كلية الآداب– مصراته

جامعة مصراتة

مقدمة:

يروم هذا البحث إلى إضاءة جانب جوهري في مفهوم التصوف، سينقلنا من مستوى المعنى اللغوي إلى مستوى المصطلح الصوفي بأبعاده الوجدانية وحمولاته العرفانية.

ليعكس تجربة في بعدها الروحاني، ويختزل نظاماً معرفياً وأخلاقياً قائما بذاته؛ حيث يصبح التطهير الداخلي المتمثل في "المجاهدة الصوفية" منهاجاً من أجل ضبط السلوك والغرائز، وتوجيه الإنسان إلى التحلي بالفضائل والأخلاق، فتصبح المجاهدة حالة للنفس تمارس التصفية الدائمة" بفعل الذات" من أجل الارتقاء والسمو.

وبما أن التصوف سلوك يقوم على تجربة ذاتية تنطلق من وعي خاص، يكون فيه للوجدان والقلب دور رئيسي وفاعل ؛حرص الصوفية على موافقة الظاهر مع الباطن باعتبار العلم باعث على العمل؛ إذا أصبح خلقاً وطبعاً للنفس، كما حرصوا من خلال خطابهم الصوفي على إصلاح الباطن من أجل إصلاح السلوك وتوجيه المجتمع إلى ما فيه الخير والصلاح.

1-المجاهدة في المعجم اللغوي والصوفي:-

- المعجم اللغوي:-

بالعودة إلى المعنى اللغوي لمفردة "مجاهدة" من خلال معجم "لسان العرب" لابن منظور لمادة "جهد" استعرض فيها مختلف المعاني المشتقة لهذه الكلمة سنجدها كما يأتي:-

الجَهد: الطاقة والوسع "بفتح الجيم"، وكذلك المشقة وقيل المبالغة والغاية، والجُهد "بالضم الوسع والطاقة، وفي التنزيل الحكيم" والذين لا يجدون إلا جُهدهم" أي الطاقة والجهد "بالفتح" من قولك: إجهد جَهدك في هذا الأمر أي أبلغ غايتك، وجَهد دابته جَهداً: بلغ جهدها وحمل عليها في السير فوق طاقتها كأجهدها. والجهاد "بالكسر" القتال مع العدو كالمجاهدة، قال تعالى: "وجاهدوا في الله حق جهاده" الحج78 "، فالجهاد هنا محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل.[1]

ومن استقراء الدلالات المتعددة الواردة في "لسان العرب" يتضح أن الدلالة الأساسية لـ"جَهد" هي: بذل الجهد والطاقة لبلوغ الغاية، وكذلك القتال مع العدو. وبهذا نجد أن هذا التعريف اللغوي ينطوي على دلالات أخلاقية ونفسية ودينية.

ومن خلال هذا التعريف للدلالة اللغوية الذي سنعتبره ركيزة للانطلاق إلى رصد مفهوم "جهد" في المعجم الصوفي للوقوف على دلالتها في بعدها الصوفي.

المعجم الصوفي:-

المجاهدة: أن يغلق العبد باب النعمة ويفتح باب الشدة، وأن يغلق باب العز ويفتح باب الذل "لله"، وأن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد، وأن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر، وأن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، ويغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.[2]

يتضح من خلال التعريف السابق ما تحمله كلمة "مجاهدة" من معاني المواجهة مع الذات والتهذيب والتوجيه لها من أجل غاية عليا، وتبدو المجاهدة من خلال التعريف السابق كطريق بدايته بذل الجهد مع النفس من أجل التهذيب؛ في مسار تصاعدي يحمل دلالات المعاناة من أجل غاية سامية. حيث يقدم المعجم تعريف "المجاهدة" من خلال تجربة ونظرة للتصوف باعتباره فلسفة حياة، يسعى الإنسان من خلالها إلى الوصول للحقائق عن طريق الإدراك الذاتي الذوقي.

2-البعد الأخلاقي في مفهوم التصوف عند الصوفية:-

تعد التجربة الصوفية في جوهرها تجربة روحية مفعمة بصدق العاطفة، وإخلاص التوجه إلى الله وعمق الإيمان، ولذلك كانت الشريعة المتمثلة في القرآن والسنة عماد هذه التجربة، وكان التجرد من علائق الدنيا وشهواتها منطلقاً للصوفي في رحلته الروحية، ومن هنا كان لهذه التجربة طابعها العملي السلوكي، والتي تجلى فيها البعد الأخلاقي.

وفيما يأتي ومن خلال استقراء نصوص الصوفية سنحاول بناء تصور للأبعاد الأخلاقية لفلسفة المجاهدة الروحية عند الصوفية، تنطلق من تصور أساسي للتصوف باعتباره: تحلية وتخلية[3] بحسب رأي الصوفية، حيث عكست تعريفاتهم لتجربتهم رؤيتهم للتصوف بأنه خُلُق وأنه: الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دنيء.[4] ولذلك يصف التستري"283هـ "الصوفي بأنه: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من

البشر، واستوى عنده الذهب والمدر.[5] فلابد للصوفي من تصفية نفسه من نقائص الصفات وشغل فكره وقلبه بالله فلا تغريه مباهج الدنيا الزائفة.

وفي تعريف أبي الحسين النوري"ت295هـ "للتصوف يؤكد على أنه ليس علماً ولا رسوماً أو أوضاعاً تُكتسب، وإنما خُلُق يتحلى به الصوفي فيقول: "ليس التصوف رسماً ولا علماً، ولكنه التخلق بأخلاق الله."[6] ولأن الصوفي يحرص على التحلي بالأخلاق السامية فهو لا يصدر عنه إلا ما فيه الخير، فيكون سلوكه مرآة لأخلاق الإسلام، فيصف الجنيد الصوفي بأنه: كالأرض يُطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.[7]

وذلك لأنه يرى أن التصوف في حقيقته مثابرة على التخلق بالأخلاق الحميدة، وترفع عن الأخلاق الذميمة، واقتداء بالشريعة، فيعرف التصوف بأنه: إخماد صفات البشرية ومنازلة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والعمل بما هو خير، والنصح للأمة، واتباع النبي عليه السلام.[8] فالتصوف في معناه لدى الصوفية هو الاتصاف بأوصاف الكمال الديني والخُلقي، حتى تصبح صفة ملازمة للنفس لامجرد رسم أو صورة ولذلك يرى أبوكرالكتاني"ت322هـ "بأن التصوف: خُلُق فمن زاد عليك في الخُلُق فقد زاد عليك في الصفاء.[9]

لقد أدرك الصوفية أن الإسلام في جوهره أخلاق بين العبد وربه، وبين العبد ونفسه، وبينه وبين مجتمعه، لأن الإيمان بالله لا يلتقي مع أخلاق الكذب والرياء وعبادة المال والانسياق وراء الشهوات، فكان لابد للعبد أن يطهر قلبه من هذه الأخلاق المذمومة ليكون إيمانه صحيحاً ولذلك جعلوا من الأخلاق أساساً للتصوف مادام الدين جوهره الأخلاق، فوجهوا اهتمامهم إلى الأخلاق وذهبوا إلى أن أي علم لا يقترن بخشية الله لا جدوى منه. فكانت الأخلاق أهم ثمار التصوف. وبالنظر إلى مقامات الصوفية نجدها مرآة تعكس فلسفتهم الأخلاقية؛ فالصبر والذكر والتوكل والشكر وغيرها في جوهرها قيم أخلاقية، يجاهد الصوفي نفسه للتحقق بها بمجاهداته

ورياضاته الروحية فتتجلى في سلوكه. ولذلك يرى الغزالي أن الصوفية هم: السالكون لطريق الله، فأخلاقهم أزكى الأخلاق، وهذا الطريق الطهارة أول شروطه، بتطهير القلب بالكلية عما سوى الله، واستغراق القلب بذكر الله، و آخره الفناء بالكلية في الله.[10]

لقد تمثل الصوفية في منهجهم ورؤيتهم للتصوف معاني القرآن الكريم وأخلاق النبي عليه السلام، فنهلوا منها معاني السمو والكمال الخلقي، وحرصوا على الاقتداء بأخلاقه عليه السلام حين وصفه تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم\القلم4"، وقوله عليه السلام:-"إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق."[11]

ويمكن القول أن التصوف كان مرآة للأخلاق الإسلامية في صورتها النقية وقيمها الروحية، عندما تجلت فيه الأخلاق الكريمة باعتباره "تحلية وتخلية"؛ خاصة وأن تعريف الصوفية للأخلاق يتمحور حول الأعمال القلبية، لأن الخُلُق في حقيقته يتعلق بصورة الإنسان الباطنية نفسه باعتبار الخُلُق: طبعٌ وسجية.[12] وفي أوصافه فهو يرتبط بالصورة الظاهرة أو السلوك. فالأخلاق سلوك يتعلق بالنفس من حيث كونها صورة باطنة، ولهذا ارتبط التصوف بالأخلاق الكريمة عند الصوفية.

وتجدر الإشارة إلى أن منهج الصوفية الأخلاقي ينطلق من مسلمة قابلية الأخلاق للتغيير والتهذيب، وهذا ما يؤكد عليه الغزالي في قوله: "فلو كانت الأخلاق لا تقبل التغير، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال عليه السلام: حسنوا أخلاقكم."[13] ومن هنا كانت الأخلاق عند الصوفية تهذيب للنفس من أجل تحقيق السمو إلى مراتب الكمال الخلقي عن طريق المجاهدة. فالتخلق بالصفات الحميدة يستوجب تنقية النفس من شوائبها، وتجريدها من رذائلها، مما يعني أن الأخلاق بالمعنى الصوفي هي ضبط النفس وتوجيهها بإرادة ذاتية.

ومن خلال هذه الرؤية الصوفية تتجلى لنا الإرادة للذات الإنسانية كقوة تملك إمكانات الضبط والتغيير والتوجيه والارتقاء. وهذا التغيير والتصفية للنفس والتحلي بالفضائل يعتبرها ابن سينا من الحكمة الخلقية فيقول:-"وأما الحكمة الخلقية ففائدتها أن تعلم الفضائل، وكيفية اقتنائها لتزكو بها النفس، وتعلَم الرذائل وكيفية توقيها لتتطهر النفس."[14] ومن هنا تبدو الحكمة ميزاناً ذاتياً يضبط سلوك الإنسان ويوجهه، فيظهر لنا التصوف كفلسفة للأخلاق تقوم على الفضائل الخلقية والضبط الذاتي، وفي هذا المعنى يشير الغزالي إلى أن الحكمة الخلقية تقوم على أسس هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، ومن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة.[15]

ويمكن القول أنه من خلال أقوال الصوفية يتجلى منهج الصوفية الأخلاقي، والذي يتأسس على التخلق بالصفات الروحانية، وتنقية النفس من كدوراتها البشرية كالضغائن والأحقاد، والإلتزام بالتكاليف الشرعية، ومخالفة هوى النفس للتحقق بالكمال الخلقي. وهو منهج يدفع بالتغيير الإيجابي في المجتمع بواسطة التربية الخلقية للفرد، وباعث هذا الحرص على الكمال الخلقي عند الصوفية كما يشير ابن عربي. حق الله، وحق لأنفسهم، وحق للخلق، فالحق الذي لله أن يعبدوه، والحق الذي للخلق عليهم كف الأذى كله عنهم واحتماله، والحق الذي لأنفسهم عليهم ألا يسلكوا بها من الطرق إلا الطريق التي فيها سعادتها ونجاتها؛ فإن النفس الأبية إنما يحملها على إتيان الأخلاق الفاضلة دين أو مروءة.[16]

فجوهر التصوف هو تحقق بالخُلُق مع الله في إخلاص العبادة، ومع النفس بتهذيبها وتحليتها بالفضائل، ومع الآخرين بكف الأذى عنهم والإحسان لهم. فتصبح الأخلاق عند الصوفي صفة ملازمة للنفس، وكمالات روحية وأخلاقية تتصف بها النفس بعد مجاهدة، وكلما ارتفع في درجات الخُلُق ازداد درجات في التصوف.

3-المجاهدة الصوفية: معاناة تصفية.. ومعاني سفر روحي:-

في بحثنا لاستكناه النظام المعرفي الصوفي نلمس أهمية الجهاد بمفهومه الباطني "المجاهدة"، وعمقه في التجربة الصوفية، وأبعاده الذوقية والسلوكية والنفسية. كما نقف من خلاله على ثنائية الظاهري والباطني، والسلوكي والوجداني والذي شكل منهجاً فكرياً متكاملاً، عقيدة وسلوكاً يوازن بين العقل والوجدان ويعزز الجوانب الروحية بفعل توجيه وتهذيب النفس الإنسانية.

مما جعل التجربة الصوفية بروحانيتها فضاءا فسيحا يمكن أن نستحضر فيه النفس بمعاناتها وسموها ومجاهداتها، من أجل التحقق بمعاني الارتقاء والكمال، وذلك من خلال فتح دائرة التأمل النظري حول معاناة وتحولات هذه النفس في رحلة المجاهدة.

ومن هنا سنحاول مقاربة إشكالية التصوف باعتباره جهاد للنفس "تحلية وتخلية" وسفر روحي، انطلق من فلسفة مجاهدة أو "تطهير داخلي "للتحقق بمعاني الكمال الخلقي والسمو الروحي، وبالتالي ستقودنا هذه المقاربة للتصوف كفضاء فكري إلى تصور حوله من خلال "نصوص الصوفية "التي عبرت عن تجربتهم، حيث وضعوا الأسس والغايات لمنهجهم الأخلاقي التي حملت دلالات التطهير ومضامين الجهاد واعتبر الصوفية جهاد النفس أعظم جهاد، حيث قرأ الصوفية قوله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين/ العنكبوت69. "بمفهومهم العرفاني ونظرتهم الروحانية واستطاعوا أن يسافروا في معانيها العميقة ويستنبطوا دلالات المجاهدة ومنهج الترقي من خلال رؤيتهم الصوفية.

إن حياة الصوفي هي رحلة جهاد ومجاهدة لملاقاة الله تعالى، أساسها صفاء الروح ونقاؤها، ولأن التصوف أخلاق وسفر روحي من أجل التحقق بمعاني القرب من الحق، كانت المجاهدة والتهذيب الدائم للنفس من أجل توجيهها والإرتقاء بها. ومن هنا التقى التصوف مع

الإسلام في روحانيته، وإعلائه من الأخلاق كقيمة وسلوك ومنهج من أجل تربية الفرد وإصلاح المجتمع.

وبالتركيز على أعمال القلوب باعتبارها جوهر الشريعة وباطنها يلتقي التصوف مع الإسلام، لأن التكاليف الشرعية تحتاج إلى صلاح الباطن وبدون صلاح القلب وصفاء النفس لا فائدة من التكاليف الشرعية، لأنها ستكون مجرد رسوم لا روح فيها. فقد اهتدى الصوفية بالسنة النبوية في تأكيد الرسول عليه السلام على حقيقة صلاح القلب في قوله:-"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب."[17] وأن محل نظر الله إلى عباده إنما هو القلب في قوله عليه السلام:-"إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم."[18]

ولذلك عُرف الصوفية بأهل الباطن أو أهل القلوب، فهم يعتبرون أن العمل بمنزلة الروح للجسد، والعمل بالتكاليف الشرعية في رأيهم لا روح فيه إن لم يقترن بالإخلاص وإصلاح الباطن. لأنهم يميلون إلى روح العبادة ولا يقنعون بالصور الشكلية، فالباطن عندهم أساس الاستقامة ومنبع الإخلاص في الطاعات والأعمال؛ وفي هذا المعنى يشير الحسن البصري إلى أن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصلاة والصوم.[19]

لقد اعتبر الصوفية أن الشريعة هي ما يتعلق بأعمال الجوارح الظاهرة، وأن ما يتعلق بأعمال الإنسان الباطنة المتمثلة في أعمال القلوب كالمقامات والأحوال "الإيمان واليقين والتوكل والمحبة والتقوى والمراقبة وغيرها" هي العلم الباطن. فكان القلب عندهم هو مناط التكليف لا الجوارح، وقيمة العبادة تكمن في إخلاص النية وليس في الرسوم الشكلية، ، وبالتالي فقيمة العمل تكمن في المعنى الروحي الذي قُصد منه طالما أن الشعائر قُصد بها معان باطنية.

وتتجلى هذه النزعة عند الصوفية في البحث عن المعاني الباطنية الكامنة وراء الشعائر في مناسك الحج التي اجتهدوا في تأويلها تأويلاً رمزياً. حيث رأوا في الحج سفراً روحياً في حقيقته، فيتوجه للقلب باعتباره كعبة لمعرفة الحقيقة الإلهية، فيحج روحياً وعقلياً ليتحقق المعنى من الحج البدني الشرعي. فكان الحج عند الصوفية نوعين؛ الأول في الغيبة والثاني في الحضور. فمن كان حاضراً مع الله في بيته، فهو كمن كان حاضراً معه في مكة، ومن كان غائباً عن الله في مكة كمن كان غائباً عنه في بيته، والحج مجاهدة لكشف المشاهدة، والمجاهدة ليست علة المشاهدة ولكنها وسيلة لها، فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقي مشاهدة الحق.[20]

فكان لمعاني الحضور القلبي عند الصوفية دورها في إعطاء الأعمال عمقها ومصداقيتها فالحضور المقصود "في الحج" هو حضور القلب والعبادات أصلها التوجه القلبي، ومن هنا كان للطهارة معناها الخاص بمعناها الصوفي المنبثق من تجربتهم ورؤيتهم العرفانية، فاعتبروا الجنابة الحقيقية تكمن في "غفلة القلب" عن الحق؛ وهي جنابة ترفعها "عمارة القلب" بضد الغفلة وبالتالي فالطهارة تكون "بالذكر"، وكانت المعارف الربانية هي ما يعتبرونه طهارة العارفين. فطهارة المريدين تكون بعمارة الجوارح الظاهرة بفعل المجاهدة والزهد وإكبار ذكر اللسان، وانتصار المريد بالعبادة هو صفاء لسره يدفع عنه الغفلة.[21]

وهو مستوى رفيع في الذكر يتجاوز مستوى الذكر باللسان، وكذلك مستوى الذكر بالقلب الذي تكدره الشواغل، حيث يملك الذكر قلوب العارفين الذاكرين فلا يداخلها سهو ولا تؤثر فيها الشواغل، بتدرج لا يكون فيه للعبارة من قيمة إلا بمقدار ما تؤثر في نقل الشعور والوعي إلى مستوى أرفع، فتكون غفلة الصوفي بانشغاله في صور الذكر بما يؤدي إلى صرفه عن المذكور عبر عنها التستري بقوله:-"أنا واحد مع واحد ولا شغل لي إلا بالواحد."[22]

ففي أعلى مستويات الذكر يتحقق الفناء بمعنى استغراق القلب في المذكور، حيث تتجلى حالة دائمة من الاتصال بالله قلباً وشعوراً يرى التستري أنها حياة الصوفي. فحياة الروح بالذكر، وحياة الذكر بالذاكر، وحياة الذاكر بالمذكور.[23] وذلك لأن حياة الصوفي الروحية تتأسس على الشعور الدائم بالحضور الإلهي، بغيبة الشعور عن الذكر وامتلائه بالمذكور، وتجاوزه لدائرة الشعور المحدد إلى أفق الحالة الدائمة من الاتصال بالله، حيث يغيب الشعور المرتبط بالنزعات الأنانية الفردية فلا يرى سوى الله.

ولا يصل الصوفي إلى هذا المستوى إلا بتجلية القلب وتصفيته، وهي مرحلة في المجاهدة أساسية لأن الاتصال بالله يكون من خلال القلب الذي يعمر بذكر الله، ويصفو من الشوائب والعلل بتمكن الحضور الإلهي فيه، فالقلوب في رأي التستري: منها ما هو عامر بالذكر ومنها ما هو خربٌ.[24] والقلوب تكون خاوية عندما تسيطر عليها الغفلة، فيكون خواؤها من ذكر الله، وحياة القلوب بذكره تعالى وحضوره الدائم فيها.

وقد أعطى هذا المفهوم الجديد للتطهر الداخلي والحضور القلبي دلالة جديدة، أغنت المعنى الصوفي بقيم معنوية وروحية ارتبطت بصفاء القلوب لخالقها، وبمعاني التصفية للإنسان فكراً وقلباً وعملاُ. حيث انطلق الصوفية في فلسفة المجاهدة من قاعدة ثنائية البدن والروح، التي أفضت إلى المجاهدة النفسية والتطهير الروحي، فإذا كانت الشريعة أن تعبد الله فالطريقة بحسب رأي الصوفية هي: أن تقصده والحقيقة أن تشهده.[25]

وهذه المشاهدة للحقيقة تستوجب المجاهدة وتكون عن طريق. حمل النفس على المشاق البدنية، وتهذيب الأخلاق النفسية. [26] ولأن التصوف أخلاق تقوم على حركة جهاد ومجاهدة تمثل الصوفية فيها قول الرسول عليه السلام:-"المجاهد من جاهد نفسه، والمهاجر من هجر ما

نهى الله عنه." [27] واستبطنوا المعنى العميق في قوله تعالى:-"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا\العنكبوت69".وقوله:"وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى\النازعات40."

والإنسان لن يتمكن من مجاهدة عدوه والانتصار عليه مالم ينجح في مجاهدة نفسه ومغالبة أهوائها. وإذا كان التصوف معاناة طريق للوصول إلى الله تنطوي على معاني التطهير الداخلي؛ من خلال مجاهدة النفس ونهايتها الفناء والمعرفة، وغاية هذا الطريق هو التحقق بالترقي الخلقي، حيث تتطهر النفس من شواغل الشهوات والتعلق بالدنيا، فيغلب على قلب الصوفي ويشغله طريق الوصول إليه تعالى، والتفاني في التقرب منه. فإن التصوف أيضا باعتباره حركة جهاد ومجاهدة تتطلع للتطهر الداخلي من أجل الارتقاء، هو فلسفة أخلاقية تهدف إلى التخلي عن الأوصاف الذميمة والتحلي بالأوصاف الحميدة، متطلعة إلى الكمال بفعل حركة النفس الداخلية وسيطرتها الذاتية على شهواتها وانفعالاتها فتمارس حريتها الجوانية بإرادة حرة تكسر من خلالها كل قيود العبودية للمادة والشهوات.

ومن خلال هذه المجاهدة يتحقق الصوفي بالآتي:-

1- في الطور الأول: بالتصفية النفسية والتخلق بالصفات المحمودة.

2- وفي الطور الثاني : بالترقي في سلم الحياة الروحية والمعراج إلى الله.

فكل معراج روحي هو وليد مجاهدة وطريق فيه جهاد للبدن وشهواته، فتتخلى النفس عن صفاتها الذميمة وتتحلى بالصفات الحميدة، وبذلك تترقى في سلم التطور الروحي وتتحقق بالمقامات التي يعتبرها الصوفية منازل للسالكين في رحلتهم الروحية؛ تبدأ بمقام التوبة وتنتهي بمقام المشاهدة حيث كل مقام يفضي إلى المقام الذي يليه، فمقام التوبة يفضي إلى الورع وهو بدوره يفضي إلى مقام الزهد ثم الفقر فالصبر فالتوكل والذكر والرضا، وتعرض للصوفي في هذه الرحلة أحوال نفسية من قرب وخوف ورجاء وشوق وأنس ويقين وفناء، فهي كتجليات

نورانية تنعكس على صفحة قلبه يصفها الجنيد بأنها: ما يتجلى على قلوب السالكين من أنوار الطريق. [28]

وما هذا السفر الروحي إلا ترق للنفس في تطورها الروحي التصاعدي من عالم الشهوات الذي يرمز له ابن عربي بالجحيم إلى عالم الروح الخالص ويرمز له بالنعيم؛ وهو في حقيقته إحياء للنفس بالإيمان والفضائل عن طريق المجاهدة. ولذلك يصور ابن عربي المعراج في كيمياء السعادة كرمز لحياة النفس في هذا العالم. فتتحقق بكمالاتها وتحظى بمقصودها الأعظم أي شهود الله تعالى. [29]

فكيمياء السعادة رمز عند ابن عربي للتحول في النفس الإنسانية من الطبيعة الخسيسة بعد المجاهدة إلى أسمى مستوياتها، تلك التي تصفو فيها النفس وتسمو فيها إلى أكمل صورها، فتعود إلى أصلها النقي وتصل إلى معرفة الله بفضل أنوار هدايته في رحلة مجاهداتها. ولهذا كانت "الطريقة" عند الصوفية هي سفر إلى الله تعالى؛ لأنها سفر حقيقي ومعنوي يقوم على تحلية النفس والجوارح بالأخلاق والأعمال الحميدة.

4-طرق تصفية النفس:-

إذا كان التصوف يقوم على مجاهدة النفس، كان من الضروري معرفة علل النفس وكيفية تطهيرها بتخليتها من الأخلاق الذميمة وتصفيتها. فمعرفة الله في نظر الصوفية تبتدئ بمعرفة النفس والعلم بنوازعها وعيوبها ومحاسنها، فكان تأكيد الصوفية على أن الجهاد الحقيقي هو جهاد النفس، ولهذا سنجد تصوراً صوفياً للنفس باعتبارها تلك اللطيفة النورانية والجوهر المستقل بذاته، حيث رأى الصوفية في الجسد حجاباً يفصلها عن عالمها الروحي وخالقها فسعوا إلى تطهيرها من عللها، وتخليصها من تحكم شهواتها حتى ترتقي إلى ربها راضية مرضية.

فكان للخطاب الرباني" وفي أنفسكم أفلا تبصرون\الذاريات21 "أثره في توجيه بوصلة القلب الصوفي إلى النظر الفكري وجلاء البصيرة، من أجل تصفية النفس لتتحقق بسفرها في معراج الارتقاء والكمال. ويمكن القول أن الصوفية أسسوا فلسفتهم في مجاهدة النفس على مبدأ" معرفة النفس"؛ لأنهم رأوا أنه بمقدار ما يعرف الإنسان من نفسه تكون معرفته بربه، كما أنه من خلال معرفة النفس نقف على عللها ودوافعها من أجل تهذيبها وإصلاحها لإزالة عوائق ارتقاء الصوفي في سفره الروحي.

فمجاهدة النفس هي عملية استبطان ذاتي للكشف عن صغائر النفس وعيوبها، لأن النفس في نظر الصوفية هي عدو الإنسان الأكبر الذي ينبغي مجاهدته؛ ولأنها لا ترى الأشياء إلا من خلال رغباتها وحاجاتها المادية، فهي مصدر الشرو مركز الشهوة والهوى، وإغراءات الدنيا لا تضل العبد عن الصراط السوي إلا إن مالت نفسه إليها.

والنفس يطرأ عليها الهوى والضلال ويعرض لها الخير والشر، وعلى الإنسان أن يعود بها إلى فطرتها النقية، ويروضها بالتزكية كما قال تعالى:-"ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها\الشمس7:10." والنفس في نظر الصوفية هي الجوهر الذي يرتقي بالإنسان إلى مستويات الكمال إذا تطهرت من شوائبها.

وشرور النفس في نظر الصوفية هي: المعاصي والأخلاق المذمومة كالحسد والغضب والرياء والأنانية وغيرها. والعجب والكبر في رأي المحاسبي من شرور النفس التي ينبغي علاجها. فالعجب يكون بالنفس أو المال أو الولد أو بالحسب والعشيرة، أما الكبر فينتج عن نقائص كالعجب والحقد والحسد والرياء. (30)

ففي النفس طبيعتان تمثلان منبع الشر في رأي الصوفية هما: الشهوة والهوى، أما الشهوة فهي مبدأ طلب اللذة المرتبط بالبدن، وهي باعث الإنسان على ارتكاب المعاصي

والخطايا. أما لذة الصوفي فهي في إيثار ما لله تعالى على ما للنفس كما يشير المحاسبي في قوله:-"وترك اللذة لله ألذ عند المريد وأبقى في القلب. [31] لأن السعادة الحقيقية عنده تتمثل في رضا الله تعالى. أما الهوى فهو ميل النفس لتحقيق رغباتها، ولا يقتصر على لذة البدن بل يتعداه إلى النزوع نحو لذة الاستبداد والتسلط واكتناز المال.

ومن المنظور الصوفي تعتبر النفس جوهر مستقل ووحدة لا تعدد فيها، وإنما تتعدد أحوالها فهي نفس: أمارة، ولوامة، ومطمئنة راضية مرضية متحققة بالسمو والكمال. فهي بحكم طبيعتها الروحانية تظل تتطلع إلى السمو والكمال والعودة إلى عالمها العلوي، لأنها في رأي الصوفية ضيف على البدن بعد هبوطها من عالمها، ولذلك فهي بانجذابها إلى الارتقاء تعكس حنينها إلى الخلاص من قيد الجسد أو العالم المادي؛ والعودة إلى ما كانت عليه في صفائها وطهرها حين كانت على اتصال مباشر بخالقها وأقرت بوحدانية الله تعالى. فغاية توحيد الموحد للواحد أن يبقى بأوصاف الحق، كما لم يزل على معنى قوله صرت سمعه وبصره ويده ورجله وقلبه، يسمع به ويبصر به ويأخذ به ويعقل به. [32]

ولا سبيل لهذه النفس إلا بالتحرر من أسر شواغل المادة وسيطرة الشهوات، وما ارتقاء الصوفي في حياته الروحية إلا ترق للنفس بفعل تصفيتها من كدوراتها وعيوبها التي تشوه صفاءها في نظر الصوفية، فكان لابد من مجاهدتها وتطهيرها. ورحلة المجاهدة الصوفية للنفس هي رحلة معاناة كما يصفها البسطامي، حيث بدأها بالنظر في مرآة قلبه لمعرفة نقائصها، ثم بالعمل على قطع علائق الإنشغال بشهوات الدنيا التي تعيق القلب عن التفرغ لله وتحجبه بحجاب الغفلة فيقول:-"كنت إثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس سنين كنتُ مرآة قلبي، فإذا في وسطي زنار ظاهر فعملت على قطعه، وعندما نظرت إلى الخَلق فرأيتهم موتى." [33]

فهنا يصور البسطامي انسياق الناس وراء غرائزهم ورغباتهم الحسية واستسلامهم لسيطرتها بالموت، لأنهم محجوبون عن المعاني الروحية فكان هذا الحجاب من المادة والشهوات موتاً لأرواحهم. وقطع هذا القيد من شواغل الشهوات يتطلب تضحية وقوة إرادة، بكبح النفس عن أهوائها ورغباتها وإيثار ما لله تعالى، وبالتالي فالنفس الإنسانية بالنظر إلى طبيعتها وبحسب الرؤية الصوفية المستمدة من القرآن الكريم تنقسم إلى:-

أقسام النفس :

1-النفس الأمارة:-

هي النفس التي غلبتها طبيعة الشر وأسرتها الشهوات قال تعالى:-"وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء" يوسف53 "، وسيطرت عليها الأخلاق المذمومة كالحسد والبخل والرياء والكبر والشهوة والغضب، فسُميت "بالشهوانية" وكانت أمارة لأنها تحكمت فيها الشهوة والغرائز، فصارت محجوبة عن عالم النور والحق لأن هذه الأخلاق المذمومة كانت بمثابة الأمراض التي شكلت حجاباً وعائقاً شوه صفاء النفس.

ويرى الصوفية أن هذه الأمراض مثل الصدأ الذي يشوه مرآة النفس، وأنه لا سبيل لصقلها إلا بعلاجها وتطهيرها من رذائلها وأمراضها، فهذه النفس "أمارة" لأنها تزين للإنسان الشهوات والمعاصي، وتغريه باللذات فتُحرم من نور الله عندما تسيطر عليها المادة والشهوات، فتغيب عنها سعاة الروح ولذة الإرتقاء في مدارج الكمال، وينسي أصحابها أنفسهم من جهة ما يحقق لها سعادتها الحقيقية، عندما ينغمسون في شهواتهم فتغلبهم عيوب النفس ونقائصها، وتكون حجاباً يضيع صفاء النفس، ولذلك فلا سبيل إلا بالمجاهدة والتطهير للإنتقال بهذه النفس إلى مستوى النفس اللوامة ثم المطمئنة.

2-النفس اللوامة:-

هي نفس كثيرة اللوم لصاحبها على التقصير في الطاعات، وهي تنظر بعين التأنيب واللوم إلى مواطن التقصير والمخالفات من أجل تهذيب النفس وإصلاحها. وقد أقسم بها الحق في قوله تعالى:-"لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة\القيامة2 "وذلك تعظيماً لشأنها ولمرتبتها، فهي الواقعة ما بين النفس الأمارة والمطمئنة، وهي لاتزال لائمة لنفسها حتى تتحقق بالتصفية وبمقام الإطمئنان، ولذلك استحقت أن يقسم بها الحق على قيام البعث والحشر.

فهي نفس تدفعها طبيعتها اللوامة إلى كبح رعونات النفس وأهوائها، بدوام تأنيبها على نقائص الأعمال فتوقظ النفس من غفلتها. والنفس في رأي ابن عربي لا يمكن أن تكون تحت حكم اللوامة إلا إذا سكنت تحت الأمر التكليفي واكتسبت الفضائل. فإذا اقتنت النفس الفضائل تشرق النفس وتعظم الهمة، فتمكن صاحبها من امتلاك نفسه وأخلاقه فتنقاد ويسهل عليه تهذيبها وإصلاحها. [34]

3-النفس المطمئنة:-

هي النفس التي تصل إلى المراتب العليا من الطهارة، وتحظى بمقامات الترقي ومذاقات الوصول، بعد أن تطهرت من عللها وشواغلها الشهوانية، فتحققت بصفائها وحظيت بتجلي أنوار الإيمان على صفحتها، فوصلت إلى مقام الطمأنينة وأشار إليها الحق في قوله تعالى:-"يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية\الفجر27، 28 ".فهي نفس لايلحقها خوف ولاجزع لأنها في مقام الإطمئنان وفي منازل الرضا، راضية مرضية عند الحق وعند الخَلق.

ولذلك عني الصوفية بمصطلح الطمأنينة فكان عندهم: حال رفيع لايكون إلا لعبد رجح عقله وقوي إيمانه وصفا ذكره وثبتت حقيقته. [35] ولا يحظى بهذه المنزلة إلا من تطهرت نفسه

حتى تحقق بطمأنينة الوصول في منازل القرب من الحق، وحظي بأنوار اليقين حتى يكون في معية الحق خلقاً وسلوكاً وقلباً مستغرقاً في الحق مشغولاً به عن ما عداه. فيتجاوز ذاته الجزئية المتناهية إلى اللامحدود. فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الحق، وصار بحراً من نسمات القُرب، أجرى في جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات وتحقق بالتخلق بأخلاق الله سبحانه. (36)

فالطمأنينة هنا ثمرة للصبر والمجاهدة، والنجاح في ترويض النفس وقهر ميولها للشهوات، مما يحرر الصوفي من القلق والمخاوف بسبب الإنسياق وراء أعراض الدنيا والإنشغال بها. فيثمر إعراضه عن مباهجها وبريقها رضا في النفس، وفرحاً بطمأنينة قلبه التي توصله إلى شهود الله تعالى في حركاته وسكناته.

ومن هنا يتأسس منهج المجاهدة عند الصوفية على مبدأين جوهريين هما:-

1- تنظيم علاقة الإنسان مع الله سبحانه بتأسيسها على الطاعة وإخلاص التوجه والتحقق بأخلاق الله بتصفية القلب.

2- تنظيم علاقة الإنسان بالإنسان فتتأسس المعاملة على الفضائل والقيم الأخلاقية.

وبحسب فلسفة المجاهدة في رحلة الترقي الصوفي، ومن خلال تراتبية المقامات التي يترقى فيها العارف ليتحقق في منازل الأحوال بأنوار الحق. يتضح أن رحلة المجاهدة هي رحلة ترقي في المعراج الروحي، بعد أن يتطهر العبد من شواغل الشهوات ويصل إلى مقام الإحسان، بتصفية الباطن من الرذائل، فتصفو النفس وتتحلى بالفضائل وتشرق على مرآتها أنوار الهداية.

وقد كان العروج بالنفس من خلال التجربة العرفانية من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى، عبر تدرج وديناميكية إيجابية تنطوي على أبعاد إنسانية وكونية إلهية، تعكس رؤية صوفية تهدف إلى تكوين الإنسان المتحقق بالأخلاق والفضائل، ومعاني التحرر في رحلة هدم وبناء وارتقاء وسمو يتجلى فيها:-

1- بُعد موضوعي: يتمثل في العبادة والتربية والتحلي بالفضائل.

2- بُعد ذاتي: يتمثل في سفر روحي للعارف في مراتب الترقي الروحي لتشرق على قلبه أنوار اليقين.

ومن خلال هذا النسق المعرفي الذي يدفع بارتقاء الذات لتصبح ذاتاً إيجابية فاعلة للخير، يتجلى لنا منهج متكامل للتربية ينطوي على أبعاد أخلاقية ووجدانية ذوقية، يلتقي مع الإسلام في حقيقة التوحيد والإيمان، فتنسج فلسفة المجاهدة نسيجاً متلوناً بألوان التجلي وإشراقات الأنوار الإلهية على صفحة القلب، تترابط في هذا النسيج وظائف الدين الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص التوجه القلبي إلى الله.

ومن خلال هذا المنهج العرفاني تتجلى فلسفة المجاهدة في تأسسها على إرادة حرة واستبطان للذات، ونظرية في طبيعة النفس الإنسانية مستمدة من النبع القرآني والخطاب الرباني والسنة النبوية تتضمن المعرفة بالنفس، والوقوف على عللها وطرق علاجها وتهذيبها.

6-معركة المجاهدة: تحرر للنفس وانتصار للذات:-

إن معركة الجهاد والمجاهدة التي يعيشها الصوفي باعثها الإرتقاء من عالم المادة إلى ملكوت السماء وسعة الأفق الذي تتوق إليه الروح، وهذا الإرتقاء لايتم إلا بفعل التطهر لتلك النفس المحكومة بوجودها المادي، وطبيعتها المفتقرة دائماً للتقويم والتهذيب، ذلك لأن التصوف باعتباره تجربة روحانية في جوهرها، باطنية في حقيقتها وطابعها، فهي تتجه للنفس كحركة داخلية من أجل إصلاحها والإرتقاء بها إلى مستويات الكمال. وما بين التعلق بالمادي والترقي الروحي يرى الصوفية علاقة عكسية، فكلما زاد الإقبال على إشباع الغرائز والشهوات، كلما ضعف الإتجاه الروحي لدى العبد، وتقلصت مساحة صفائه النفسي.

كما أنها كحركة خارجية بأبعادها الفكرية والاجتماعية والسياسية تسعى إلى إصلاح المجتمع، وتوسيع أفق الحوار وترسيخ قيم المحبة والتسامح والإرتقاء الخُلُقي. فالتجربة الصوفية تراهن في عمقها على الإرتقاء الروحي، الذي يظل مرهوناً بتصفية النفس والتحلي بالأخلاق والمجاهدة البدنية والروحية.

وبما أنها تجربة منفتحة على المطلق وأفق الروحانية، فكان لابد أن ترتكز على فلسفة للتطهير الروحي أو "المجاهدة"، فتعكس توق الصوفي إلى مواطن القُرب من الحقيقة في طريق معراجه الروحي، والذي كان لابد فيه من أن يرتقي في مقامات وأحوال.

من هنا كانت النفس في نظر الصوفي ومن منطلق فلسفة المجاهدة "كونٌ" ينبغي تنقيته وتصفيته؛ لتشرق فيه أنوار الحقيقة بفعل التطهير الذي سيحقق لها التدرج في منازل الإرتقاء في المقامات والأحوال الصوفية. ومن هنا تسمو المجاهدة بالذات الإنسانية إلى مدارج الكمال الروحي، حيث تنفتح على اللامتناهي وتعانق المطلق.

ومن خلال القراءة التأملية لتجربة التصوف عبر هذه الذات المسافرة في أفق الترقي يتضح لنا أن هذه الذات كانت محكومة بهاجس الخلاص وعبور المسافة، ومن هنا كان التطهر الداخلي والمجاهدة طريقها من أجل تجاوز المادي، والتحرر من قيود الشهوات ولذلك كان سفر الصوفي عبر مقامات الإرتقاء، سيفضي به إلى مسار تصاعدي في مقامات المجاهدة، ومنازل الأحوال الروحية.

يمكن القول أن البحث في مفهوم التصوف من خلال بعده الأخلاقي وغايته التطهيرية لا يكشف فقط عن لون الثقافة في بعدها الديني، وعمقها الروحاني ودلالتها الأخلاقية، وإنما سيكشف لنا عن مدى حاجتنا إلى نهضة ثقافية تحمل اتجاهاً أخلاقياً إصلاحياً في عمقها وغاياتها.

خاصة وأن تراثنا يزخر بهذه التجربة الغنية "التصوف" في بعدها الأخلاقي والروحي وغائيتها في تحقيق الكمال الوجودي والأخلاقي.

هوامش البحث:-

1- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3، ط2، 1997 م، ص279.
2- حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987 م، ص252.
3- القشيري، الرسالة القشيرية، مطبعة الحلبي، القاهرة، ج1، 1959 م، ص138.
4- الطوسي، اللمع، تحقيق: عبدالحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ج4، 1960 م، ص45.
5- فريدالدين العطار، تذكرة الأولياء، دار الأندلس، بيروت، ج1، 1984 م، ص263.
6- القشيري، المصدر السابق، ص139.
7- القشيري، المصدر السابق، ص128.
8- فريدالدين العطار، المصدر السابق، ص273.
9- القشيري، المصدر السابق، ص128.
10- الغزالي، المنقذ من الضلال، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1316هـ، ص103.
11- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت، رقم:4221.
12- الفيروزبادي، لسان العرب، مادة: خلق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1987م، ص198.

13- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج3، 1987 م، ص57.
14- ابن سينا، عيون الحكمة، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ط2، ص28.
15- الغزالي، المصدر السابق، 58.
16- ابن عربي، الفتوحات المكية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ج1، 2006 م، ص33.
17- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، دار ابن كثير، بيروت، ج1، 1993م، رقم52، ص29.
18- صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت، رقم:2564.
19- عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري، وكالة المطبوعات الكويت، 1975 م، ص78.
20- الهجويري، كشف المحجوب، ترجمة: إسعاد قنديل، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ج2، 1975 م، ص328.
21- أحمد بن عجيبة، شرح أبيات في معنى الطهارة والصلاة عن طريق أهل المعرفة، رقم1736 د، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006 م، ص133.
22- التستري، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العربية، القاهرة، 1329هـ، ص134.
23- التستري، المصدر السابق، ص135.
24- التستري، المصدر السابق، ص133.
25- القشيري، المصدر السابق، ص153.
26- ابن عربي، المصدر السابق، ج2، ص145.
27- مسند ابن حنبل، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ج6، 1993م، ص21.
28- الجنيد، رسائل الجنيد، تحقيق: أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006 ص178.

29- ابن عربي، المصدر السابق، ج2، ص153.

30- المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، دار ابن حزم للنشر، بيروت، 2004 م، ص279.

31- المحاسبي، المصدر السابق، ص272.

32- الجنيد، المصدر السابق، ص260.

33- البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق: قاسم عباس، دار المدى، دمشق، 2004م، ص66.

34- ابن عربي، كتاب الأخلاق، مطبعة التقدم، القاهرة، د.ت، ص41.

35- الطوسي، المصدر السابق، ص206.

36- السهروردي، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983 م، ص278.